العادات والتقاليد

(الموت ــ في بلدة عين إبل والمناطق المحيطة بها)

بقلم الكولونيل شربل بركات

... ويأتي الخريف مرة أخرى ، ومرة أخرى نودع صيفا ونتحضر للشتاء ، وتفيض روائح الخير من الخوابي الممتلئة و"النعاعير" ، ويتخمر العنب خلا أو كحولا ، وتمطر السماء من جديد خيرا تتفتح له شرايين الأرض المشتاقة بعد غياب طويل ...

لكن الخريف الذي كان في التقاليد الكنعانية القديمة فصل عودة البعل يغذي الأرض ويغنيها ، هو لنا فصل موت أوراق الأشجار المثمرة التي تتحضر للشتاء وبرده وثلوجه فتتعرى لتبقى أغصانها منتصبة كالهياكل العظمية . ومن هنا ، ومع أن الطبيعة في بلادنا يعود لها شيئا فشيئا ثوبها الأخضر ، ولو بين الحفافي والصخور ، إلا أن منظر الأشجار العارية يذكرنا بالموت ...

وقصة الموت والحياة هي التراث الباقي لكل شعوب الأرض . وإذا كان العرس رمز للحياة واستمراريتها ووعد بأجيال قادمة . وله ما له من القيمة في تراثنا . فإن للموت الذي يعتبر حدا لحياة ، تقليد واحترام وقيمة لم تزل ترافقنا منذ الأجيال الأولى للإنسانية التي ورثنا نحن أكبر قدر من تراثها المستمر في هذا الشرق دلالة على بقائنا وحفاظنا على قيم هي رمز لهذا التاريخ الطويل .

وطقوس الموت في تراثنا مثال حي للشعور الإنساني المتجذر في تقاليدنا ، فنحن "نحزن مع الحزانى ونفرح مع الفرحين" . وقيمة تقاليدنا هذه هي في الشعور مع الآخرين ومحاولة مراعاة أحاسيسهم والتخفيف من مصائبهم ومآسيهم .

وتبدأ المشاركة منذ تلقي الخبر المؤلم وكيفية إعلام أصحاب الشأن به . ففي تقاليدنا إذا ما حدث مكروه لا يبلغ الخبر مباشرة إلى صاحب الشأن بل لأحد الأقارب وعادة أحد كبار العائلة الأقرب الذي يستدعي بعض الأقارب لدرس موضوع إعلام أهل البيت . ثم يتم الإعلام بروية مع أخذ كثير من الأمور بعين الاعتبار كي لا تكون الفاجعة سببا لحدث آخر يزيدها إيلاما . وهنا أهمية المشاركة للتخفيف من وقع المصيبة على أصحابها . ثم قبل أن يعلن الخبر على البلدة تحضر البيوت للاستقبال وتدرس تفاصيل عملية الدفن وهذه كلها يقوم بها الأقارب والأصدقاء لأن أصحاب البيت لا يستطيعون عادة التفكير بالتفاصيل .

ثم بعد التحضيرات الأولية يعلن الخبر للبلدة بواسطة جرس الكنيسة "دقة حزن" ويبدأ المعزين بالتوافد إلى بيت أصحاب العزاء ، وينعى أهل المنطقة بواسطة نعوات توزع على القرى المحيطة .

في تقاليدنا المسيحية يجب أن يسجى الجثمان مدة ٢٤ ساعة وذلك للتأكد من الوفاة الكاملة وليس بسبب الرغبة بالنوح والعويل فوق الجثمان . بينما في تقاليد أبناء المنطقة الشيعة مثلا يجب أن يدفن الجثمان قبل مغيب الشمس مهما قصرت المدة بين الموت والدفن .

وبما أن البكاء هو التعبير الطبيعي عن الألم والحزن فإنه يكثر في حالات الوفاة لأن فقدان الأحباء يبقى الأصعب . ويزيد الألم والحزن بقدر ما تكون الفاجعة كبيرة والفقيد عزيز . وبما أن المشاركة تخفف من المصيبة فإن وجود المحبين مهم في هذه الحالات . وفي تقاليدنا فإن البلدة كلها محبة وتشارك خاصة في حالات الوفاة . والكلام عن الفقيد وتذكر حسناته هو عادة عند أغلب شعوب الأرض ، وهذا الكلام يزيد من الشعور بالحزن وبالتالي الدافع إلى البكاء . والبكاء في حالات الحزن الشديد والتأثر الزائد هو حالة صحية لأنه يفجر هذا الإحساس فيريح صاحبه . من هنا كان "الندب" ، وهو نوع من الغناء الذي يثير العواطف ويؤدي إلى إظهار الحزن ، ضروري خاصة لأصحاب العزاء وبالذات للحساسين منهم . لذلك كان للنساء جمعة خاصة في تقاليدنا للندب والبكاء لأنهن الأكثر حساسية وتأثرا وعاطفة . وإذا كان الكنعانيون قد اشتهروا بالتأثر والبكاء على الموتى فإن حوض البحر المتوسط الشرقي خاصة لا يزال يحمل معه هذا التقليد الراقي في تراث شعوبه كلها تقريبا . ومن يرافق الكلمات التي تقال في الندب يعرف بأنها قد وصلتنا عبر أجيال وأجيال وهي مختلفة المصادر وسوف يكون لها بحث خاص .

خلال الساعات الأربع والعشرين التي تسبق الدفن تكون البلدة كلها عادة في بيت العزاء وتتوقف الأعمال إلا الضرورية منها ويتناوب الناس بشكل عفوي على التواجد مع أهل الفقيد ويأتي الأصدقاء والمحبين من كافة القرى المحيطة وأحيانا الأماكن البعيدة بحسب قيمة الفقيد عند هؤلاء ، ويؤجل الدفن أحيانا ليتسنى للأقارب البعيدين ، خاصة في بلاد الاغتراب ، الحضور .

وفي العادة وبما أن أهل العزاء مشغولون حتى عن الأكل والشرب فإن الجيران والأقارب يهتمون بموضوع تحضير الأكل لأهل العزاء وللموجودين وخاصة إذا كان هؤلاء قد قدموا من أماكن بعيدة ، ولذا كانت تحضر الولائم وتذبح الذبائح . وهنا فأن المحبين يشاركون بتقديماتهم للقيام بالواجب فيقدم أحدهم خروفا أو جديا ويقدم آخر كيسا من الرز أو السكر أو القهوة . والقهوة ، وعادة ما تقدم مرة ، هي أساس في ضيافة مجالس العزاء والتي تدوم بعد الدفن وطيلة مدة التعزية . وهذه المشاركة ضرورية هنا أكثر منها في الأفراح وقد سبق ذكرها في العرس والشوبشة أو المباركة ، ولكنها هنا ضرورية لأنه بالرغم من أن العرس حاجة إلا أن توقيته اختياري وهنا يمكن أن يتحضر الأهل للمناسبة ويشارك الأحباء

والأصدقاء في دعم البيت الجديد ، أما هنا في العزاء فإن المناسبة مفروضة والتوقيت "ليس باليد" من هنا وجبت المشاركة وبشكل أكبر لأن الأهل قد فقدوا شخصا عزيزا وفي وقت غير منتظر وبالأغلب وقد لا يكونون جاهزين للقيام بالواجب .

واحتراما لرهبة الموت وزيادة في التأثر وإعطاء القيمة للراحل والمناسبة فإن موكب الجنازة يعتبر في تقاليد كل الشعوب محترما ويجب أن تسير كل البلدة في موكب الجنازة وراء النعش بصمت يتقدم الموكب الصليب المقدس ثم حملة الزهور وعادة ما يكونون من التنظيمات المحلية كالكشاف والفرسان وفرقة الموسيقى .. ثم الكهنة فالنعش الذي يتناوب شباب البلدة على حمله ثم أهل الفقيد وخلفهم كل المشييعين . ويترأس الجناز عادة راعي الأبرشية ويحضره كهنة القرى المجاورة . وقد أتفق ألا تحضره النساء في عين إبل لكي يبقى له الشكل الرسمي البعيد عن الحركات العاطفية التي تصدر عن النساء في مثل هذه المواقف وقد يكون أيضا مجاراة للمحيط الشيعي حيث لا تشارك النساء بالعادة في مجالس الرجال ولا في الصلوات . وبعد الجناز يقف أهل الفقيد في ساحة الكنيسة لتقبل التعازي من المشاركين بالجناز ، وفي الماضي كانت هذه التعزية تتم بعد الدفن . ويقف بجانبهم كل من تربطه بهم صلة قرابة أو نسب . ثم يتوجه أهل البلدة برفقة أقارب الفقيد إلى المقبرة لمواراة فقيدهم الثرى ويحمل النعش في الوداع الأخير أقرب الناس إلى الفقيد ، ويعودون بعد ذلك إلى البيت لتعزية النساء لينتهي نهار طويل في وداع أحد أبناء البلدة .

وتستمر التعازي في منزل الفقيد مدة أسبوع يقدم خلالها القهوة فقط وتلبس النساء الأسود علامة الحداد ويضع الرجال ربطات العنق السوداء ويبقى بيت الفقيد مركز الزيارات للأصدقاء والمحبين طيلة الأربعين يوما التي تلي الدفن والتي تنتهي بجناز الأربعين حيث يعود أهل البلدة لزيارة بيت الفقيد بشكل رسمي ويرافقونهم إلى الكنيسة وبعد الجناز تتم من جديد التعزية في باحة الكنيسة وتكون النساء قد زرن القبر في اليوم الذي سبق الجناز كإشارة لإنهاء حالة الحزن والعودة إلى الحياة الطبيعية . وبعد التعزية يذهب الأهل والأقارب إلى بيت الفقيد حيث تقام وليمة يقال لها "لقمة الرحمة" يشارك بها كل الذين تحملوا مع أهل الفقيد وشاركوهم في فترة التعزية إن بالتقدمة أو بالعمل كما يدعى من حضر من بعيد للمشاركة بهذه المناسبة .

ويختلف تقليدنا عن تقاليد المنطقة بين الاحتفال بالأسبوع والاحتفال بالأربعين . ومع أن التراث الكنعاني قد حفظ لنا في ملاحم أوغاريت وبالضبط في أسطورة "إقهات بن دانيال" تفصيلا للتصرف تجاه الموت ، حيث عندما فقد دانيال ابنه "مزق ثيابه ولبس المسوح وجلس على الأرض وعفر وجهه بالتراب وأرخى شعر رأسه ولحيته مدة سبعة أيام" وذلك

احتجاجا على المصيبة التي حلت به . بينما يذكر لنا العهد القديم أن العبريين عندما توفي موسى قد بكوه وناحوا عليه مدة ثلاثين يوما . وقد اخترنا نحن الأربعين ليكون الحد الطبيعي للفصل بين حالة وأخرى في البنية البيولوجية لجسم الإنسان حيث يقال أن الإنسان يعتاد الحالة الجديدة بعد مرور أربعين يوما ويقول المثل العربي "من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم أو رحل عنهم" دلالة على أن الأربعين يوم هي الحد بين أن يعتاد الإنسان على حالة ما أو يرفضها . وقد تبنى اليهود والمسلمون العادة التي سبق أن تبناها الكنعانيون ولا تزال تمارس عندهم بينما تبنى تراثنا الأربعين يوما كحد لحالة الألم التي تلي فقدان عزيز . وبعد مرور سنة يذكر أهل الفقيد فقيدهم بقداس يكون الأخير في الاحتفالات العامة بعدها تصبح حتى الصلوات خاصة وغير معلنة .

من الضروري أن نذكر التعابير التي تقال في هذه المناسبات لأن الكثيرين أصبحوا يخلطون أحيانا بينها والبعض لا يعرف ما هو الواجب مع أن هذه التعابير ليست منزلة إلا أنها لا تحتاج إلى تفتيش وتؤدي المعنى المطلوب . فعندما يكون الجثمان لم يدفن بعد يقول القادمون للتعزية "يرحم مانتو فاقدين" أي ليرحم الله الشخص الذي فقدتموه وفيها دلالة على أنها تقال أيا كان الميت وحتى لو لم يكن القادم يعرف بالضبط من هو الفقيد . ويكون الجواب المختصر "تعيش" والجواب المفصل "الله يرحمو ويبقيك" . وفي أثناء التعزية في باحة الكنيسة يقول المعزون "الله يرحمو" أو "الله يرحما" (إذا كانت الفقيدة امرأة) ويجاب عليهم "يرحم مواتك" . وعندما يتقدم الأهل لشكر من وقف معهم أثناء التعزية يقولون "العوض بسلامتكن" أو "تعوضنا بسلامتكن" أي إن الله عوض لنا عن من فقدنا بوجودكم وبسلامتكم وهنا يكون الجواب "الله يسلمكن" .